غياب

إدمون عمران المليح... باقٍ في الصويرة!

ولادته الإبداعيّة جاءت متأخرة، مع «المجرى الثابت» الصادر في باريس عام 1980. عميد الأدب المغاربي الذي أغمض عينيه يوم أمس في أحد مستشفيات الرباط، ويوارى الثرى اليوم في مدينته البحرية الجميلة، صاحب مسيرة غنيّة حافلة بالأعمال والمواقف والممارسات التي أسهمت في بلورة وعي أجيال من المثقفين والكتّاب

بيار أبي صعب

حين عاد أواخر التسعينيات إلى أرضه، بعد ثلاثة عقود أمضاها في منفاه الطوعي، كان الجميع يعرف أنّها المحطّة الأخيرة في مسيرة خاصة تكاد تختصر تاريخ المغرب الحديث. هكذا أعاد إدمون عمران المليح (1917 ـ 2010) تأكيد التمسّك بجذوره الضاربة عميقاً في أرض أجداده، منذ نزوحهم الكبير الذي تلى انهيار الأندلس. وفي تلك الأرض، في الصويرة تحديداً كما أوصى، يدفن اليوم، الكاتب الذي وصفته «الإندبندنت» بـ«جيمس جويس المغربي»، بعد تأبين تحتضنه المقبرة اليهوديّة في الرباط.

الجنتلمان التسعيني الأنيق، عميد الأدب المغاربي، وأحد الرموز الأساسيّين للحركة الوطنيّة في بلاده، تخلّى عن بسمته الرسوليّة، صباح أمس الاثنين، في أحد مستشفيات الرباط. بدأ إدمون حياته مناضلاً ضد الاستعمار الفرنسي، وانخرط في الحزب الشيوعي المغربي الذي وصل فيه إلى مناصب قياديّة، قبل أن ينفصل عنه أواخر الخمسينيات بسبب تقاعسه عن الانغراس في التربة المحليّة. أما الأدب، فلم يطرق بابه إلا متأخّراً، في باريس التي لجأ إليها منذ عام 1965 بعد انتفاضة آذار/ مارس الدامية في الدار البيضاء. أستاذ الفلسفة المشغول بـ«مدرسة فرانكفورت» مع رفيقة دربه ماري ـ سيسيل (رحلت عام 1998)، كان في الثالثة والستين حين كتب باكورته الأدبيّة «المجرى الثابت» («ماسبيرو»، 1980). هذا العمل الأوتوبيوغرافي، وضعه، شأن كل ما كتب لاحقاً، في لغة موليير التي لقحها من خلال تقنيات السرد، بمستويات العاميّة المغربيّة

> مواقفه الشرسة من إسرائيل كلفته عزلة حقيقية على الساحة الفرنسية

وخصوصيّاتها. لاحقاً عادت السيرة الذاتيّة إلى الضاد، شأنها في ذلك شأن معظم كتاباته الأخرى.

ثم تتالت إصداراته في باريس، علماً بأن مواقفه السياسيّة الحاسمة إلى جانب القضيّة الفلسطينيّة حرمته من ملكوت النشر الفرنسي: «إيلان أو ليل الحكي» («ماسبيرو»، 1983)، «ألف عام بيوم واحد» («لا بانسيه سوفاج»، 1986)، «عودة أبو الحاكي» (1990). ويمكن أن نضيف «آبنر أبو النور» (1995)، و«حقيبة سيدي معاشو» (1998)، و«المقهى الأزرق» (1998). من دون أن ننسى كتابات نظريّة ونقديّة نشرها تحت عنوان «جان جينيه، الأسير العاشق، ومحاولات أخرى» (1990)، وإسهاماته في النقد التشكيلي عن أحمد الشرقاوي وآخرين. كل هذه المؤلفات، جعلت من صاحبها أحد رواد الأدب المغاربي، ومعلماً ترك تأثيره على أجيال متعاقبة.

ذات يوم بادره صحافي بريطاني بالسؤال: «أنت كاتب يهودي مغربي...»، فقاطعه المليح على الفور مصحّحاً: «ليس تماماً! أنا كاتب مغربي يهودي». وربّما كان هذا التفصيل البسيط كافياً لاختصار الرجل. هذا الوعي الوطني الذي بناه على مناهضة الاستعمار، والدفاع عن الحريّة، ومناصرة الطبقات الدنيا، جعل من «الحاج إدمون»، كما يلقّبه محبّوه، وريثاً شرعياً لقيم فكريّة وروحية كثيرة متداخلة. في نصّه المشبع بإيقاعات العامية المغربية وتلاوينها، القائم على لغة المجاز والأمثال، نقل الجذور اليهوديّة في الصويرة وآسفي، وصوّر طقوس العشيرة الأولى وعاداتها وتاريخها. كذلك عكست كتاباته الصحوة الوطنيّة والنضال من أجل الاستقلال، وانطبع أدبه، مثل مواقفه العلنيّة، بالدفاع عن قضيّة فلسطين، وإدانة الممارسات الإسرائيليّة العنصريّة بحق الشعب الفلسطيني.

من الحاج إدمون سنحتفظ طويلاً بتلك البسمة العارفة. إضافة إلى كتاباته التي ستبقى من ركائز الروح المغربيّة والأدب العربي والإنساني، سنتذكر صوته الهادئ ونظرته النقدية التي تغذّي النقاش، وانحيازه الدائم إلى الموقع المعارض. في زمن المرتزقة وتجار الفتنة والانغلاق والتعصّب، سنبقى نتعلّم من مفهومه العلماني لـ«المواطنة». وسنستلهم حماسته وراديكاليّته في الدفاع عن العدالة، ومواجهة الظلم بشراسة على حساب امتيازاته الشخصيّة. إنّه المعلّم الذي شهد للحقّ حتّى اللحظة الأخيرة من حياته.

شاهدوا على موقع «الأخبار» مشاركته في برنامج «مشارف» الذي يقدّمه الزميل ياسين عدنان على القناة المغربية الثانية

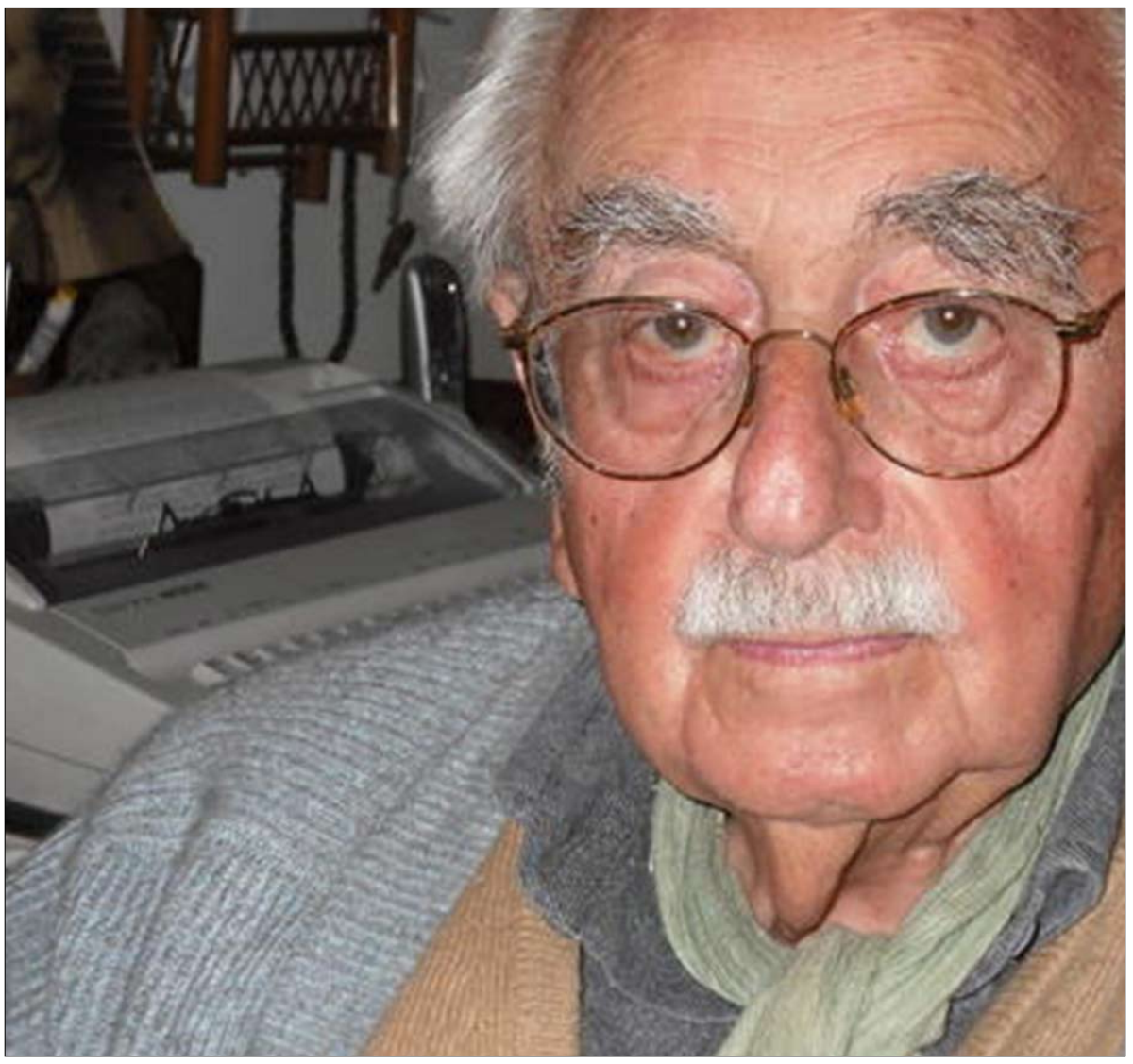

مؤسسة ثقافية باسمه

قبل عامين حذّر الحاج إدمون من إهمال تراث الفنان الراحل محمد القاسمي. فهل نستعير الكلمات نفسها، لندعو إلى حفظ تركة صاحب «المجرى الثابت»؟ في عام 2004، أعلنت رسميّاً ولادة «مؤسسة إدمون عمران المليح للأدب والفنون» بحضور صاحب العلاقة. المؤسسة التي لم نسمع عن نشاطاتها كثيراً كل هذا الوقت، تهدف إلى «تعزيز الحوار وصون التعدد الثقافي والانفتاح على العالم والمستقبل». والآن، من شأنها أن تهتم بكتابات الراحل وأعماله ومخطوطاته ومقتنياته ومكتبته النادرة... وبجزء مهم من ذاكرة المغرب الحديث.

... ورحلت كلثوم عميدة المسرح الجزائري

الجزائر ـ سعيد خطيبي

هي عميدة الممثلات الجزائريات، وأول عربية تمشي على بساط «مهرجان كان السينمائي» الأحمر (1967). عاشت راقصة وممثلة في المسرح والسّينما، وجسّدت أدواراً مهمة في أشهر الأفلام الجزائرية. عاصرت مؤسسي الفن الرابع، ونسيتها ذاكرة الجزائر القصيرة بعدما رحلت منذ أيام إثر وعكة صحيّة مفاجئة. حينها فقط، تذكر الجميع أن الجزائر كانت تمتلك امرأة وفنانة تعيش الحاضر بكل ما يحمله من خيبة وتناقضات، بعيداً عن روح النوستالجيا.

«ليس سهلاً اختزال كلثوم وهي حيّة، فكيف يمكن اختزالها بعد وفاتها؟» هكذا تصرّح الممثلة بهية راشدي التي رأت أن الراحلة «امرأة استثنائية».

كانت جميع المعطيات متوافرة كي تجعل من كلثوم (اسمها الحقيقي عائشة عجوري) امرأة عادية، تخضع لسلطة البطريركية، في جزائر بدايات القرن الماضي. لكن الصغيرة «عيشة» (1916 ـ 2010) قررت كسر القاعدة. فكرت في ولوج عالم الرقص ووجدت نفسها، تدريجاً، تنسحب صوب المسرح، بمساعدة محيي الدين بشطارزي (1897 ــ 1986)، الذي رافقها في أولى خطواتها، ونقلها من مسقط رأسها في البليدة (70 كلم جنوبي العاصمة) إلى الأوبرا ومنحها أدواراً نسائية، في كثير من الأعمال، سواء الكوميدية أو التراجيدية. لعبت إلى جانب أسماء معروفة، مثل رشيد قسطنطيني وحبيب رضا. واشتهرت خصوصاً في مسرحية «زواج بالهاتف» (1963).

قبل ذلك أي في عام 1951، مرّت بحالة نفسية متقلبة إثر ضغوط اجتماعية كادت توقف مسيرتها، لكنها استطاعت الخروج منها والعودة إلى الخشبة في مسرحية «عطيل» لويليام شكسبير التي اقتبسها بالعربية أحمد توفيق المدني (1952). مع اندلاع الثورة التحريرية، توقفت عن العمل الفني، وانخرطت في العمل النضالي السري، ثم عادت إلى ملاقاة الجمهور سنة 1963 واستمرت في التمثيل حتى اعتزالها سنة 1989.

> آخر إطلالاتها كانت في فيلم «البوابون» عام 1991

مشاركتها في فيلم «رياح الأوراس» (1966) للمخرج محمد لخضر حامينا، حيث جسدت دور «أم» تبحث عن ابنها الذي اعتقله جنود الاحتلال، مثلت النقلة النوعية في تجربتها الفنية. فيلم سمح لها بالبروز محلياً وعربياً، وخصوصاً بعدما نال الفيلم نفسه جائزة «أفضل باكورة» في مهرجان «كان» (1967). استمرت حياة التجريب، في المسرح والسينما، والغناء والرقص أيضاً. وأثمرت 70 مسرحية، و20 فيلماً، وخمسة أشرطة، مع العلم أنها توقفت عن الغناء مباشرة بعد ولادة ابنها الوحيد (1954). حرمتها إدارة المسرح الوطني الجزائري من مواصلة عملها وهي في سنّ العطاء، بعدما أحالتها على التقاعد قبل أيام فقط من عرض آخر مسرحياتها «موت المسافر» للمخرجة فوزية آيت الحاج عام 1987. وكانت آخر إطلالاتها في فيلم «البوابون» (1991) للمخرج رويشد. وصفتها الممثلة فريدة صابونجي بأنّها «امرأة احترمت فنها»، عاشت حياتها متنقلةً عبر المسارح واستوديوهات التصوير لا تؤمن سوى بحقها في الفن والتمثيل.